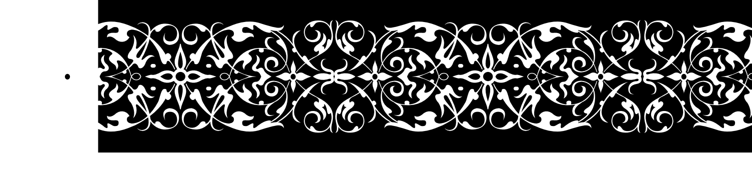
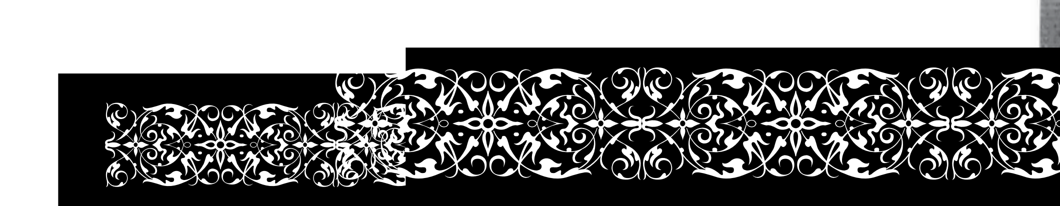
الرجوع إلى الله






الرجوع إلى
الله
(التوبة)
الكاظمين الغيظ
الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة
الشؤون الفكرية والثقافية
١٤٣٢ هـ





المقدمة



الحمد لله رب العالمين الصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين وعلى آله الطيبين الطاهرين، ولا سيما بقية الله في الأرضين، عجل الله تعالى فرجه وجعلنا من أشياعه وأتباعه.

الإنسان – المسلم وغيره– شاء أم أبى، هو في حركة وانتقال ونقطة العود هو الله سبحانه، كما أن نقطة البدء منه سبحانه، وهذا هو مضمون (إنا لله وإنا إليه راجعون). لكن شتان بين من يسافر إلى ربه بصحيفة قد سوّدها الكفر أو العصيان وبين مسافر بيّض صحيفة أعماله بالإيمان والطاعات، فالأول يلتقي الله سبحانه وهو شديد العقاب، يعاقب المسيء على إساءته، والثاني يلتقي مع الله سبحانه، وهو غفور رحيم، يثيب المطيع على إحسانه ويزيده من فضله. والبشرية بصورة جماعية متجهة بمسار ثانٍ إلى لقاء إمامها الثاني عشر عجل الله فرجه. فكلما مر قرنٌ من الزمان أو عقدٌ أو حتى سنة تكون البشرية قد اقتربت من هذا اللقاء المرتقب، وقد أشار القرآن إلى كلا المسارين للفرد الواحد وللبشرية جمعاء، فقال تعالى في المسار الأول ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾[١]. وقال –عز من قائل– في المسار الثاني ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ

(١) الانشقاق الآية ٦- ١٢

آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١). وكلا المسارين يحتاجان إلى مسار اختياري، وهو غير المسير الاضطراري، حتى يصل الإنسان إلى ربه بوصف المغفرة والرضوان إن مات قبل قيام القائم عجل الله فرجه أو يكون من أنصاره وأتباعه إن امتدّ به العمر إلى يوم الظهور. وهذا المسير الاختياري له منازل كثيرة؛ وأول تلك المنازل هو الرجوع إلى الله سبحانه من الذنوب والمعاصي وكل ما لا يرضاه سبحانه. فلا بد من التطهر من ذلك أولا وبعدها يأتي سائر المحطات التي على السائر أن يسلكها.

فحتى يجد العبد ربه غفورا فالطريق هو ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾(٢)، وحتى يكون من أنصار الإمام عجل الله فرجه لا بد أن يبيع المؤمن نفسه وماله ويشتري بذلك الجنة عن طريق القتل والقتال، وهو الوعد الإلهي في كل الكتب السماوية، وبهذا يدخل تحت هذه الأوصاف التي ذكرها القرآن ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣). فلاحظ أن التوبة هو أول المسارين. نسال الله أن يوفقنا إليهما جميعا.

---

(١) النور الآية ٥٥
(٢) طه الآية ٨٢
(٣) التوبة ١١٢

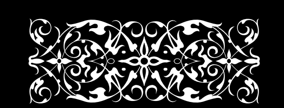
بين الرب والعبد

يتجاذب الإنســـان –إي إنســـان– قوى مختلفة، كل منها يريد إشـــباع نفســـه، بغض النظر عن حاجة القوى الأخرى. والإفراط في إشـــباع قوة أو أكثـــر خطأ، والتفريط خطأ كذلك. والمطلوب أن يوازن الإنســـان بين هذين الطرفين (الإفراط والتفريط)، وخاصة أن وجود هذه القوى ضروري لإدامة حياة الإنســـان. فالقوة الشهوية (ميل الإنسان إلى الشهوات) ففيه إدامة حياة الإنسان الشخصية بشهوة الأكل وإدامة النوع الإنساني بشهوة الميل إلى الجنس الآخر. لكن الإنســـان قد يسرف في إشباع هذه القوى فيكون شـــرهاً بحيث لا يعرف ســـوى لذة الأكل والجماع ويبحث عنهما أينما وجدا؛ وفي الجانب الآخر قد يفرط في ترك هاتين الشهوتين إلى حد الكبـــت وعدم التنفيس عن هـــذه الغريزة والتي لا يمكن أن تكبت بدون نتائج تدمر الإنسان أولا والمجتمع ثانيا، والموازنة بين هذين الطرفين هي ما يســـميه علماء الأخلاق بـ(العفة). وهناك قوة أخرى هي القوة الغضبية، وهي الموجبة لصدور أفعال الســـباع من الغضب والبغضاء والعدوان على العباد، واســـتعمالها بإسراف يؤدي بالإنســـان إلى التهوّر، وتركها بالكلية يؤدي إلى الجبن. وفائدتها أن يدافع الإنســـان عن نفســـه ومقدساته من عدوان الآخرين عليه. وهناك قوة ثالثة وهي مهمة جدا، وهو قوة التفكير عند الإنسان. واستعمال هذه القوة بإفراط أو تفريط مضرّ، وعليه بالوسط، وهـــو (الحكمة). وأهمية هذه القوة أن لها قابلية الســـيطرة والتحكم في كل قـــوى النفس الأخرى إذا مالـــت إلى جهة الإفراط أو التفريط. فحتى يبقى الإنسان أنسانا ولا يُسلب منه اسم الإنسانية عليه أن يجعل الحكومة

والإدارة بيـــد العقل ليقود بقية قوى النفس إلى شـــاطيء الإمان. فبالعقل يُعرف الله سبحانه وبه يعبد، فقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن العقل فقال (ما عُبد به الرحمن واكتســـب به الجنان قال قلت فالذي كان في معاوية قلت تلك النكراء، تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل)[1]. وهذه الشيطنة تجرّ الإنســـان إلى المهاوي والمهالك بالابتعاد عن الله سبحانه ورضوانه. والســـؤال الذي يطرح نفسه: هل هذا الابتعاد عن المولى سبحانه عصي عن العلاج أم إن هناك طريقة لعلاجه والرجوع إلى ســـاحة القرب الإلهي، وخاصة إذا عرفنا أن من مميزات الدين الإسلامي أنه دين يتسم بالواقعية، ونعني بالواقعية أنه لا يتعامل مع الإنســـان تعامـــلا خياليا؛ وبكلمة أخرى إنه الدين الذي لا يوصل للإنســـان ما هو المـــراد منه فقط وإذا زل عن المطلـــوب فيغلق باب الرجوع في وجهه، بل يتعامل مع الإنســـان أذا زل وتاه عن الدرب وذهب بعيدا إن باب الرجوع إلى المولى ســـبحانه مفتوح، وعليه الرجوع وهذا الرجوع من العبد يسبقه رجوع من الرب ويلحقه رجوع ثاني.إذن هناك ثلاث رجوعات:

١. الرجـــوع الأول مـــن الله لأن رجوع العبد حســـنة تحتـــاج إلى قوة والحسنات منه سبحانه، والقوة له سبحانه؛
٢. رجـــوع من العبد إلـــى الله بالندامة والانصراف مـــن الإعراض عن العبودية؛
٣. الرجوع الثاني من الله تطهير العبد من الألواث والأقذار وزوال هذه القاذورات.

(١) بحار الأنوار ١٧٠/٣٣

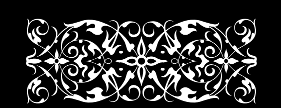



وقد جمع الله سبحانه وتعالى هذه الرجوعات الثلاث بقوله تعالى ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[١]. وصفة المولى سبحانه وتعالى (التواب) صيغة مبالغة من مادة (توبة) مما يدل على كثرة رجوعه سبحانه على عباده. فإذا كان الرجوع من الرب إلى العبد يعبر عنه بـ(على) وإذا كان من العبد إلى الرب فيعبر عنه بـ(إلى). فيقال مثلا «تب إلى الله» وقد استخدم في موضع آخر بصيغة اسم الفاعل للدلالة على الاستمرار والتجدد، فيقول سبحانه ﴿غَافِرِ الذَنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾[٢]. فغفران الذنوب وقبول التوبة وإن كانت من صفات الله الفعلية لكنها متجددة مستمرة، فهو لا يزال يغفر ويغفر ولا يزال يتوب ويتوب. وفي تعبير قرآني آخر ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٣]. والفعل المضارع (يقبل) يدل على الاستمرار أيضا؛ وأزيد من ذلك إن هذا القبول الدائم والمستمر للتوبة هو واجب على الله سبحانه ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ﴾[٤]، وقد رفض بعض المسلمين هذا التعبير (يجب على الله) لأن فيه إشكال هو أن هناك سلطة لغير المولى على المولى حتى يوجب عليه شيء، ولا يمكن –حسب رأي هؤلاء– أن يجب على الله شيء بدون هذا السلطان. وبما إنه لا يوجد مثل ذلك فلا يجب على الله شيء. وقد أجاب بقية المسلمين على ذلك بأنه قد يجب على الله شيء بلا هذا المحذور بأن يكون هو سبحانه الذي أوجب

(١) التوبة الآية ١١٨
(٢) غافر الآية ٣
(٣) الشورى الآية ٢٥
(٤) النساء الآية ١٧

على نفســه ذلك ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِــهِ الرَّحْمَةَ أَنَّــهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١). فالله سبحانه مفروض عليه (مكتوب عليه) لكن هو مَن فرض ذلك وهو من كتب ذلك، والآية بعد ذلك تتحدث عن المشــمول بهذه الكتابة، وبكلمة أوضح أن الله سبحانه فرض الرحمة والمفروض عليه هو الله سبحانه، ويرتفع القرآن بالتوبــة بعد وجوبها ويجعلها غاية لأمر خطيــر جدا، وهذا الأمر الخطير هــو حمل الأمانــة. وهذه الأمانة نعرف ضخامتها مــن أنها عرضت على الســموات والأرض والجبال فأبين -على عظمتها- أن يحملنها وأشفقن منهــا وحملها الإنســان، وهو الأضعف، لكنه لا يفتقــر إلى القدرة على ذلك الحمل. وعلى العموم فالقرآن يقرر أن عاقبة ذلك وغايته هو عذاب أهل النفاق والشــرك. ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَــى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُــورًا رَّحِيمًا﴾(٢). وقد جعلت التوبة فــي موضع آخر في القرآن الكريم غاية لتشــريع الأحكام الإلهية ضمن غايات أخرى ﴿يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُــنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُــوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٣). وقدكان هذا الأمر ســارياً في كل الرسالات الإلهية السابقة وهو ليس من مختصات الشــريعة الخاتمة. فهذا نبي الله هــود عليه السلام يقول لقومه، وهو يدعوهم إلى سبيل ربه: ﴿يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ﴾(٤) ثم يذكر آثار ذلك من إرســال الســماء خيراتها وزيادة قومه قوة إلى قوتهم. وقد

(١) الإنعام الآية ٥٤
(٢) الأحزاب الآية ٧٣
(٣) النساء الآية ٢٦.
(٤) هود الآية ٥٢



عرّف نبـي الله صالح عليه السلام قومه بربهم بعد أن دعاهم إلى عبادته وحده ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾(١). ومثله دعوة نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾(٢). ويقيناً أن التوبة المطلوبة من قوم صالح وشعيب عليه السلام -وهم كفار- هي الرجوع إلى الله سبحانه بالإيمان به وبرسوله. من هذا وغيره، تعرف أن هناك أقساماً للرجوع إلى الله سبحانه منها:-

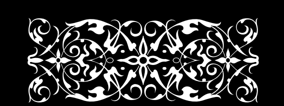
١. رجوع الكفار؛
٢. رجوع العصاة؛
٣. رجوع الأنبياء والأولياء.

وقد مر بنا دعوة الأنبياء السابقين عليهم السلام قومهم إلى الرجوع إلى ربهم ومثلهم خاتمهم صلى الله عليه وآله، فهو الآخر دعا بالدعوة نفسها، فدعا قومه إلى الرجوع إلى الله وشملت هذه الدعوة كلاً من الكافرين والمسلمين فالأولى دعوة إلى رجوعهم إلى حضيرة الإيمان، أمّا دعوة المسلمين فهي الرجوع إلى الله من الذنوب والمعاصي، ففي السنة التاسعة للهجرة بلّغ أمير المؤمنين عليه السلام -بأمر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله- مشركي قريش وغيرهم آية ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ

(١) هود الآية ٦١
(٢) هود الآية ٩٠

غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ﴾(١). فالتوبة المطلوبة من المشـركين، وهي خير لهم في دنياهم وأخراهم، هي رجوعهم إلى الله سـبحانه بالإيمان به، والكفر بكل معبود سـواه. فـإن اختاروا عدم التوبة فلا يملكون الخروج عن سـلطان الله مهمـا تفرعنوا وطغوا. وقد وصف الله بعضهم بعد آيات من هذه الآية المباركـة، أنهم باعوا آيات الله وكان المفترض بهم أن يؤمنوا بها، باعوها بثمـن بخس لا يعدو دنيا قليلة زائلـة مضمحلة، وهم لا يكتفون بضلال أنفسـهم، بل يعمدون إلى صدّ بقية الناس عن سبيل الله ولا يراعون عهداً مـع المؤمنيـن. ومع كل هذا التجـاوز لا يغلق المولى بـاب الرجوع في وجوههم بل يفتح ذلك لاسـتقبال هـؤلاء المعتدين ﴿فَإِن تَابُـواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الـزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾(٢). والملاحظ أن هؤلاء على بعدهـم المفرط عن المؤمنين يمكن أن يصبحوا أخوانا لهم في الدين بعد التوبة وإصـلاح أمرهم، بل وحتى القائلين بالتثليـث وهي فكرة يرفضها العقل وتأباها الفطرة السليمة ويحكم القرآن بكفر المعتقد بها. لكن باب الرجوع لم يغلق في وجه من يقول ذلك ﴿قَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَـةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّـنَّ الَّذِينَ كَفَـرُواْ مِنْهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْـتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣). فأنت ترى إن باب الرجوع إلى الله سـبحانه وتعالى مفتوح أمام هـؤلاء وهم أعداء الدين واكثر مـن ذلك هو مفتوح أمام المنافقين، وهم العدو، حسـب تعبير القرآن الكريم نفسـه مما يدل على شدة عداوتهم

(١) التوبة الآية ٣
(٢) التوبة الآية ١١
(٣) المائدة الآية ٧٣ - ٧٤



وأوليتهــا على عداوة غيرهم من الأعداء لأن العدو المســتتر بين ظهراني الأمة يشهد كل حركاتها وســكناتها ويعرف مواضع القوة ونقاط الضعف أيضــا. ولذلك عدهم القــرآن العدوّ الأول أولاً، وأخبــر أنهم في الدرك الأســفل من النار ثانيا. ومعلوم أن دركات النار كلما نزل الإنســان فيها والعياذ بالله يشتدّ عذابها. فالدرك الأسفل (وهو الأخير) يكون أشد عذابا لكن –ومــع هذا كله– لا يغلق باب الرجوع في وجه هؤلاء فيســتثني من هــؤلاء ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُــواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّــهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَــوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١). وحتى ذلك القسم من المنافقين الذي يعبر عنهم القرآن بأنهم قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا لم ينالوا من الفتك برسول الله ﷺ حين رجع مــن غزوة تبوك. أخرج البيهقي عــن حذيفة بن اليمان قال: (كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق أو أنا أسوق وعمار يقود، حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً اعترضوا فيها فأنبهت رسول الله ﷺ فصــرخ بهم فولوا مدبرين. فقال لنا رســول الله ﷺ هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا يا رســول الله كانوا متلثمين، ولكن قد عرفنا الركاب قال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة. هل تدرون ما أرادوا؟ قلنا لا. قال: أرادوا أن يزلوا رسول الله ﷺ في العقبة فيلقوه منها ...)(٢).

والقرآن يوبخ هؤلاء بأنهم بدل أن يقابلوا إغناء الله ورســوله من فضله، وقد أفــرد الفضل ليعلم أن الفضل لله وحده، وما يصدر عن رســول الله

(١) النساء الآية ١٤٦
(٢) روح المعاني ١/١٣٩

من فضل فهو من الله سبحانه، قابلوا ذلك بالنقمة والمفروض أن يقابل بالشكر. ولكن –مع ذلك كله– فإن باب الرجوع مفتوح أيضا أمام هؤلاء ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(١).

وصنف أخر، ولعله أخير، وهم المرتدون عن دين الله بعد شهادتهم بأن الرسول ﷺ حق، بعد رؤية المعجزات الكثيرة فيستحقون الخلود في لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، والخلود في العذاب الذي لا يخفف عنهم. ومع كل ذلك، ومن رحمة الله الواسعة بعباده، يفتح لهؤلاء باب الرجوع لكن بشرط الإصلاح ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢). ويستثنى من الكفار قبول توبتهم اثنين:

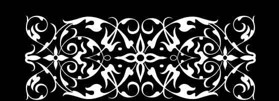
١. الكافر بعد الإيمان ثم ازداد كفرا.

٢. الذي يموت وهو كافر.

لأن الاثنين لم يتوفر فيهما عنصر الرجوع إلى الله سبحانه، وعلى هذا، لا يكونون من أهل التوبة المقبولة.

التوبة المقبولة

(١) التوبة الآية ٧٤
(٢) آل عمران الآية ٨٩



من النعم الإلهية التي تحتاج إلى شكر هي نعمة التوبة. يقول الإمام زين العابدين عليه السلام:

(الحمد لله الذي دلنا على التوبة التي لم نفدها ألا من فضله، فلو لم نعتدد من فضله إلا بها لقد حسن بلاؤه عندنا، وجل إحسانه إلينا، وجسم فضله علينا، فما هكذا كانت سنته في التوبة لمن كان قبلنا. لقد وُضع عنا ما لا طاقة لنا به، ولم يكلفنا إلا وسعا، ولم يجشمنا إلا يسرا، ولم يدع لأحد منها حجة ولا عذرا. فالهالك منا من هلك عليه والسعيد منا من رغب إليه[١]).

وهذه النعمة مختصة بالمؤمن بآيات الله لكنه عمل سوءاً بجهالة، وهو الذنب لا عن جحود وعناد، ويتدارك ذلك بالتوبة والإصلاح، فهو محل لغفران الله ورحمته. ومثل هذا المضمون تماما ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]. وفي هذه الآية نكتة أن الغفران والرحمة منوطة بالتوبة بدليل من بعدها. أما الإصلاح فهو كاشف عن كون التوبة حقيقية وليست وهمية، وهي التوبة التي تؤثر الغفران والرحمة لا التوبة الوهمية، توبة لا يعقبها إصلاح. وهذا ما يسميه القرآن في موضع آخر التوبة النصوح، والنصح تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه ويأتي بمعنى الإخلاص ... وقوله تعالى (توبة نصوحا فمن أحد هذين إما الإخلاص وإما الإحكام)[٣]، وهي

---

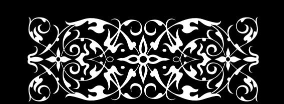
(١) الصحيفة السجادية ٣٦
(٢) النحل الآية ١١٩
(٣) المفردات ٤٩٥

التوبــة التي تصرف صاحبها عن العــودة إلى المعصية أو ما يخلص العبد فلا يرجــع إلى الذنب الذي تاب منه. وهذا ما ندب إليه المولى فقد أمر المؤمنيــن بقوله تعالى ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَــى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُــمْ سَــيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَــا الْأَنْهَارُ﴾[١]. وفعل الأمــر توبوا ظاهره الوجوب فهذا دليل قرانــي على وجوب التوبة وآثارها مــن تكفير الذنوب في الدنيا والدخول في الجنــة في الآخرة. وهذا هو الفلاح الذي أشار إليه المولى في آية أخرى فقال ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَــا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢]. فمن أراد الفلاح –وكل عاقل يبحث عن الفلاح– فالطريق واضح وأوله التوبة النصوح وقمة ذلك الفلاح هي الفوز بالحب الإلهي وهي درجة عالية لا ينالها الكثيرون، ومع ذلك ينص القــرآن على ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٣]. والتواب هنا صفة للعبد لا للرب ســبحانه، وتعني أنه كثيــر الرجوع إلى ربه، ذلك هو العبد الذي يتوب إلى الله ســبحانه ويرجع إلى المعاصي، ويعرف أن له رباً يقبل منه إذا رجع إليه فيتوب مرة أخرى، وهكذا.

سئل الإمام الصادق عليه السلام عن التوبة النصوح فقال:

(هو الذنب لا يعود فيه أبدا فقال السائل وأيّنا لم يعد؟ فقال يا أبا محمد إن الله يحب من عباده المفتتن التواب)[٤]، لكن بشرط عدم الإقامة على

(١) التحريم الآية ٨
(٢) النور الآية ٣١
(٣) البقرة الآية ٢٢٢
(٤) الكافي ٢ /٤٣٢



الذنب.

وعنه عليه السلام: (إن الله عز وجل يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب كما يفرح أحدكم بضالته إذا وجدها)[١].

فكما إن أحدنا إذا وجد ضالته فرح لأنها تعود إليه، فالمولى سبحانه يفرح بالعبد إذا رجع إليه بعد أن زلت قدمه، وكأنه بهذه الزلة قد ضاع وبرجوعه يوجده مالكه وأزيد من ذلك وفوق ذلك يعامل المولى سبحانه هذا الراجع إلى عبوديته بلطفه وكرمه بشرط الإيمان والعمل الصالح فيقول بعد ذكر الشرك والقتل والزنا، وهي من كبائر المعاصي، أن أصحابها يستحقون العذاب المضاعف الخالد لكن هناك استثناءً ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢] وقد ذكر في القرآن غير الكبائر الثلاثة هذه، وهي:

١. تعذيب المؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[٣].
٢. رمي المحصنة بغير الإتيان بأربعة شهود وعقوبته ثمانون جلدة ولا تقبل شهادتهم ويحكم بفسقهم، لكن باستثناء ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤].
٣. قاتل المؤمن خطأً فعليه تحرير رقبة مؤمنة ودية تسلم إلى أهله إلا

(١) الكافي ٢/٦٠٢
(٢) الفرقان الآية ٧٠
(٣) البروج الآية ١٠
(٤) النور الآية ٥

بأن يعفو الأهل عن الدية. وإن كان المقتول من أعداء المسلمين فتحرير رقبة مؤمنة، وإن كان من أعداء المسلمين وقد دخلوا مع المسلمين بميثاق فدية تسلم إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[١].

٤. الربا وعلى المؤمن ترك الربا وإلا فيؤذن صاحب الربا بحرب من الله ورسوله ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾[٢].

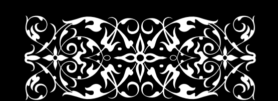
٥. كتمان ما انزل الله من الهدى والبينات يستحق صاحبه اللعن باستثناء (الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)[٣].

٦. قطع الطريق إذ تستحق العصابات التي تنهب المال وتقتل الأنفس عقوبة كبيرة جدا في الدنيا والآخرة باستثناء (الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[٤].

٧. السرقة فالسارق والسارقة تقطع أيديهما لكن (فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ

---

(١) النساء الآية ٩٢
(٢) البقرة الآية ٢٧٩
(٣) البقرة الآية ١٦٠
(٤) المائدة الآية ٣٤



ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[١].

وأنـــت ترى أن الكبائر كلهـــا أو جلها قد ذكــرت وعلاجها بالتوبة مع أصلاح الحـــال مما يدل على صدق التوبة كما أســـلفنا وعلى حد تعبير الحديث الوارد عن الإمام الباقر عليه السلام:

(لو كانت ذنوب المؤمن مثل رمل عالج ومثل زبد البحر لغفرها الله فلا تجترروا)[٢].

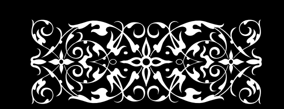
ويحســـن هنا أن نذكر هذه القصة وفيها من العبرة الشيء الكثير، وهي تفتح باب الأمل لكل المذنبين.

فقـــد (دخل معاذ بن جبل على رســـول الله صلى الله عليه وآله باكياً فســـلم فرد عليه السلام ثم قال ما يبكيك يا معاذ؟ فقال يا رسول الله أن بالباب شاباً طري الجســـد حســـن الصورة يبكي على شـــبابه بكاء الثكلى على ولدها يريد الدخول عليك. فقال النبي صلى الله عليه وآله: ادخل على الشاب يا معاذ فادخله عليه. فســـلم فرد عليه السلام ثم قال: ما يبكيك يا شاب؟ قال: كيف لا أبكي وقـــد ركبت ذنوبا إن أخذنـــي الله عز وجل ببعضها أدخلني نار جهنم، ولا أراني إلا سيأخذني بها ولا يغفر لي أبدا. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله هل أشركت بالله شـــيئاً؟ قال: أعوذ بالله أن أشرك بربي شيئا. قال: أقتلت النفس التي

(١) المائدة الآية ٣٩
(٢) البحار ٦٧/٦٥

حرم الله؟ قال: لا. فقال النبي ﷺ: يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل الجبال الرواسي. فقال الشاب: فإنها أعظم من الجبال الرواسي. فقال النبي: يغفر لك ذنوبك وإن كانت مثل الأرضين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق. قال فإنها أعظم من الأرضين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق.

فقال النبي ﷺ يغفر الله لك ذنوبك وان كانت مثل السموات ونجومها ومثل العرش والكرسي قال: فإنها أعظم من ذلك. قال: فنظر النبي ﷺ إليه كهيئة الغضبان. ثم قال ويحك يا شاب ذنوبك أعظم أم ربك؟ فخرّ الشاب لوجهه وهو يقول سبحان ربي ما شيء أعظم من ربي، ربي أعظم يا نبي الله من كل عظيم. فقال النبي ﷺ فهل يغفر الذنب العظيم إلا الرب العظيم؟ قال الشاب: لا والله يا رسول الله. ثم سكت الشاب. فقال له النبي ﷺ ويحك يا شاب ألا تخبرني بذنب واحد من ذنوبك؟ قال: بلى أخبرك أني كنت انبش القبور سبع سنين وأخرج الأموات وانزع الأكفان. فماتت جارية من بعض بنات الأنصار فلما حملت إلى قبرها ودفنت وانصرف عنها أهلها وجن عليهم الليل أتيت قبرها فنبشتها ثم استخرجتها ونزعت ما كان عليها من أكفانها وتركتها مجردة على شفير قبرها ومضيت منصرفا فأتاني الشيطان فأقبل يزينها لي ويقول: أما ترى بطنها وبياضها؟ أما ترى وركها؟ فلم يزل يقول لي هذا حتى رجعت إليها ولم املك نفسي حتى جامعتها وتركتها مكانها فإذا أنا بصوت من ورائي يقول يا شاب ويل لك من ديان يوم الدين يوم يقضي وإياك كما تركتني عريانة في عساكر

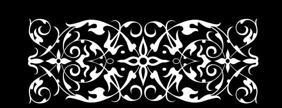


الموتى ونزعتني من حفرتي وسلبتني أكفاني وتركتني أقوم جنبة إلى حسابي فويل لشبابك من النار فما أظن أني أشم ريح الجنة أبدا فما ترى يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: تنح عني يا فاسـق إني أخاف أن احترق بنارك فما أقربـك من النار!! ثم لم يزل ﵇ يقول ويشـير إليـه حتى أمعن من بين يديـه فذهب فأتى المدينة فتزود منها ثم أتى بعض جبالها ولبس مسـحا وغـل يديه جميعـا إلى عنقه ونادى يا رب هذا عبـدك بهلول بين يديك مغلول يا رب أنت الذي تعرفني وزل مني ما تعلم سيدي. يا رب أصبحت مـن النادمين وأتيت نبيك تائبا فطردني وزادني خوفا فأسـألك باسـمك وجلالك وعظمة سـلطانك أن لا تخيب رجائي سـيدي ولا تبطل دعائي ولا تقنطنـي من رحمتك فلم يزل يقول ذلك أربعيـن يوما وليلة تبكي له السـباع والوحوش فلما تمت له أربعون يوما وليلة، رفع يديه إلى السـماء وقـال: اللهم مـا فعلت في حاجتي؟ إن كنت اسـتجبت دعائي وغفرت خطيئتي فأوح إلى نبيك وإن لم تسـتجب لي دعائي ولم تغفر لي خطيئتي وأردت عقوبتـي فعجل بنار تحرقني أو عقوبة في الدنيا تهلكني وخلصني من فضيحة يوم القيامة. فانزل الله تبارك وتعالى على نبيه ﷺ (والذين إذا فعلوا فاحشـة) يعني الزنا (أو ظلموا انفسـهم) يعني ارتكاب ذنب أعظم من الزنا ونبش القبور واخذ الأكفان (ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) يقول خافوا الله فعجلـوا التوبة (ومن يغفر الذنوب إلا الله) يقول عز وجل أتاك عبـدي يا محمد تائبا فطردته فأين يذهب؟ وإلى من يقصد؟ ومن يسـأل أن يغفـر له ذنبا غيري؟ ثم قال عـز وجل (ولم يصروا على ما فعلوا وهو يعلمـون) يقول لم يقيموا على الزنا ونبـش القبور وأخذ الأكفان (أولئك

جزاءهم مغفــرة من ربهم وجنات تجري من تحتهــا الأنهار خالدين فيها ونعم اجر العالمين) فلما نزلت هذه على رسول الله ﷺ خرج وهو يتلوها ويبتسم. فقال لأصحابه: من يدلني على ذلك الشاب التائب؟ قال معاذ: يا رسول الله بلغنا انه في موضع كذا وكذا فمضى رسول الله ﷺ بأصحابه حتى انتهوا إلى ذلك الجبل فصعدوا إليه يطلبون الشاب فإذا هم بالشاب قائم بين صخرتين مغلولة يداه إلى عنقه قد اسود وجهه وتساقطت اشفار عينه من البكاء وهو يقول: ســيدي قد أحسنت خلقي وأحسنت صورتي فليت شــعري ماذا تريد بي؟ في النار تحرقني؟ أو في جوارك تســكنني؟ اللهم انك قد أكثرت الإحسان إلي وأنعمت علي فليت شعري ماذا يكون آخــر أمري إلى الجنة تزفنــي؟ أم إلى النار تســوقني؟ اللهم إن خطيئتي أعظم من السموات والأرض ومن كرسيك الواسع وعرشك العظيم. فليت شعري تغفر خطيئتي أم تفضحني بها يوم القيامة؟ فلم يزل يقول نحو هذا وهو يبكي ويحثو التراب على رأسه، وقد أحاطت به السباع وصفت فوقه الطير وهم يبكون لبكائه. فدنا رسول الله ﷺ فأطلق يديه عن عنقه ونفض التراب عن رأســه وقال: يا بهلول أبشر فإنك عتيق الله من النار. ثم قال ﷺ لأصحابه هكذا تداركــوا الذنوب كما تداركها بهلول. ثم تلا عليه ما أنزل الله عز وجل فيه وبشر بالجنة)[١].

فهل هناك بعد هذا كله عذر لمعتذر قد أذنب بل ارتكب الذنوب الكثيرة أو العظيمة؟ وهل للذنب العظيم إلا الرب العظيم؟ وعلى حد تعبير ســيد

(١) مسند احمد ١٩٨/٣




الساجدين عليه السلام: (الهي أنت الذي فتحت لعبادك بابا إلى عفوك سميته التوبة، فقلت: توبوا إلي توبة نصوحا فما عذر من أغفل دخول الباب بعد فتحه؟ إلهي إن كان قبح الذنب من عبدك فليحسن العفو من عندك)[١] .

كيفية التوبة

مرّ بنا الأدلة القرآنية على وجوب التوبة، وفي سنة المعصومين عليهم السلام الكثير من ذلك أيضا، فقد روي عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: (إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا وبادروا بالإعمال الزاكية قبل أن تشتغلوا وصلوا الذي بينكم وبينه بكثرة ذكركم إياه)[٢].

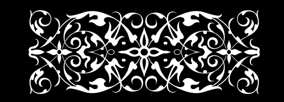
وقال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل خيرا استزاد الله منه وحمد الله عليه وإن عمل شرا استغفر الله وتاب إليه)[٣]، وكثير غير ذلك. وقد أجمع المسلمون على وجوب التوبة خاصة بعد حكم العقل بأن حدوث المخالفة والمعصية أو البقاء عليها بعد مقارفتها قبيح وخاصة إنها من المهلكات، وإنها تجلب الضرر، ودفع الضرر واجب عقلاً يشترك فيه كل عقلاء الدنيا، والتورط بارتكاب ذنب مسالة يمكن أن تطرأ على أي بني آدم إلا من عصم الله، وهذا ما يسميه القرآن (جهالة) وله معنيان:

(١) الصحيفة السجادية ٢٨٢
(٢) بحار الأنوار ٦ /١٩
(٣) الاختصاص ٢٤٣

الأول: غلبة الهوى على العارف بقبح المعاصي (فوجود العلم كعدمه لعدم تأثيره في مقام العمل) ومن غير عناد مع الحق ومن آثاره سرعة الرجوع بعد إخماد الشهوة.

٨. الثاني: لا يكون العمل بشيء قبيح إلا من جهل فاعله فإنه يخاطر بنفسه بتعريضها إلى العذاب الخالد أو لا تكون المعصية إلا عن جهل بحقيقة المعصية، وما يترتب عليها من محذور. فكل عاصٍ وإن كثر علمه وشهاداته وأوسمته، وان انتمى إلى مقدس عند الناس أو قديس عند الله فهو جاهل بمعنى من المعاني. ولذلك يختلف الناس بهذه الجهالة شدة وضعفا إلا من عصم الله، فقد تصدر هذه الجهالة من ابن النبي كما الحال مع ابن نوح، وقد تصدر من أبناء كثيرين كما حدث في قصة يوسف فقد اجتمع عشرة رجال على ظلم أخيهم الصغير. وقد عبر يوسف عليه السلام عن ذلك كما حكى ذلك القرآن ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾(١). وقبلها دعا ربه عندما دعته النسوة إلى الفحشاء ﴿إِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾(٢). وعلى هذا يمكن إن نعرف الإنسان المعصوم، وهو من لا يقترف صغيرة ولا كبيرة، وهو الذي لا يجهل مقام ربه من جهة، ولا يجهل ما يترتب على المعصية من جهة أخرى. فهو والمعصية كأحدنا مع كاس السم فكما لا يقدم العاقل على شربه فكذلك لا يقدم المعصوم على المعصية

(١) يوسف الآية ٨٩
(٢) يوسف الآية ٣٣



لعلمه بعواقب ذلك، وتعظيما لمقام ربه. وعلى العموم فهذه المنزلة مختصة بأهلها وهم قليل وإلا فإن أكثر البشر هو من يزل (كل ابن ادم خطاء وخير الخطائين التوابون)[١] كما قال الرسول الأكرم ﷺ لكن تترتب عليه أمور إذا ارتكب ذنبا أو ألمَّ بمعصية فعليه:

أولا – أن يسارِع إلى التوبة.

ثانيا – أن تكون التوبة نصوحا.

وقد أشار القرآن لهاتين الخطوتين فقد قال في الأولى: (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً)[٢].

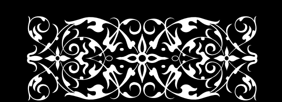
والأصل في الاستعجال أنه مكروه لقول رسول الله ﷺ (التأني من الله والعجلة من الشيطان، وما شيء أكثر يعاد رضي الله وما شاء أحب الله من الجهد)[٣]، لكنها تكون غير مكروهة، بل مطلوبة ومحبوبة في موارد، وأهم تلك الموارد رجوعِ العبد الآبق إلى ربه. وقد عبرت الآية الكريمة عن ذلك من قريب، لذلك يروى عن الرسول الأكرم ﷺ: (اتق الله حيث ما كنت وخالق الناس بخلق حسن وإذا عملت سيئة فاعمل حسنة

(١) مسند احمد ١٩٨/٣
(٢) النساء الآية ١٧
(٣) شعب الإيمان ٨٩/٤

تمحوها)[١].

وقـــال لقمان ؏: (يا بنيّ لا تؤخر التوبة فان الموت يأتي بغتة)[٢] فما دام الإنسان ليس علي موعد مع الموت بل يأتيه بغتة وإذا مات وهو مقيم على الذنوب فإن ذلك يســـتوجب العذاب. فعلى العاقل أن يرجع إلى ربه قبل حلول ذلك، وهذا معنى أخر للقرب المذكور في الآية الكريمة. وقد بيّن ذلك الرسول الأكرم ﷺ في آخر خطبة خطبها فقال ﷺ: (من تاب قبل موته بســـنة تاب الله عليه وإن السنة لكثيرة، من تاب قبل موته بشهر تاب الله عليه، قال: وان الشـــهر لكثير من تـــاب قبل موته بيوم تاب الله عليه، ثم قال: وإن يوما لكثير، من تاب قبل موته بســـاعة تاب الله عليه، ثم قال: وان الســـاعة لكثير، من تاب وقد بلغت نفسه هذه، وأهوى بيده إلـــى حلقه تاب الله عليه)[٣]. وقد نص القـــرآن الكريم على أن من التوبة غير المقبولة إذا رأى الإنســـان علامات المـــوت فعند ذلك لا تقبل مثل هذه التوبة ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَـــوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾[٤]. ومن هـــذا نفهم أن زمان التوبة يبدأ بعد المعصية مباشـــرة وهو أفضل أزمانها وينتهي قبل معاينة الإنسان علامات الموت، فإذا نزل الموت ورأى الإنسان علاماته فلا توبة مقبولة، بل تكون مرفوضـــة كتوبة فرعون حين ﴿أَدْرَكَـــهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي

(١) أمالي الطوسي ٢٠٧
(٢) بحار الأنوار ٣٠٧/٧١
(٣) بحار الأنوار ١٦/٦
(٤) النساء الآية ١٨



آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[١]. هذا على المستوى الشخصي، وهناك يوم يغلق فيه باب القبول على المستوى النوعي عندما تخرج علامة آخر الزمان وهي منتهى قبول التوبة. وبكلمة أوضح قبل هذه العلامة تقبل التوبة، وبعدها لا تقبل لبشر التوبة. قال الرسول الأكرم ﷺ: (من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه)[٢] وتأتي هذه الرواية وأمثالها تفسيرا لقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[٣]. فعلى العاقل أن ينتهز الفرصة قبل فوات الأوان وعليه أيضا أن يوفر ثلاثة أمور وهي بمثابة شروط الصحة والتوبة وثلاث أخرى كشروط لكمال التوبة. وهذه الستة هي الآتي:

١. **الندم على المعاصي السابقة وهو حقيقة التوبة. قال الرسول الأكرم ﷺ: (كفارة الذنب الندامة)[٤]. وقد ذكر في أحاديث أخرى أن علامة المؤمن أن تسره الحسنة وتسيئه السيئة.**

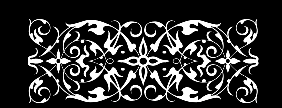
٢. **الإصرار على عدم العود لأن من ندم على شيء فعله لا يعود إلى ذلك الشيء المندوم عليه.**

---

(١) يونس الآية ٩٠-٩١
(٢) مسند احمد ٦٠
(٣) الإنعام الآية ١٥٨
(٤) مسند احمد ٢٤/٦

٣. **أداء حقوق العباد لأهلها لأن حق العبد لا يسقط إلا باستيفائه أو التصالح عليه أو التحلل من صاحب الحق فقد روى (أن شيخا من النخع قال للباقر عليه السلام لم أزل واليا منذ زمن الحجاج إلى يومي هذا فهل لي من توبة؟ فسكت منه فقال عليه السلام: لا حتى تؤدي إلى كل ذي حق حقه حتى تلقى الله أملس)[١]. وهذا هو الإصلاح الذي قرن في كثير من الآيات بالتوبة، وقد مر بنا أن ذلك من علائم صحة التوبة. قال الإمام الصادق عليه السلام: (كان رجل في الزمن الأول طلب الدنيا من حلال فلم يقدر عليها وطلبها من حرام فلم يقدر عليها فأتاه الشيطان فقال له يا هذا إنك طلبت الدنيا من حلال فلم تقدر عليها وطلبتها من حرام فلم تقدر عليها. أفلا أدلك على شيء تكثر به دنياك ويكثر به تبعك؟ قال بلى قال تبتدع دينا وتدعو إليه الناس. ففعل فاستجاب له الناس وأطاعوه، وأصاب من الدنيا. ثم انه فكر فقال: ما صنعت؟ ابتدعت دينا ودعوت الناس. ما أرى لي توبة إلا أن آتي من دعوته فأردّه عنه. فجعل يأتي أصحابه الذين أجابوه فيقول لهم إن الذي دعوتكم إليه باطل، وإنما ابتدعه فجعلوا يقولون: كذبت وهو الحق. ولكنك شككت في دينك فرجعت عنه. فلما رأى ذلك عمد إلى سلسلة فوتد لها وتدا ثم جعلها في عنقه وقال: لا أحلها حتى يتوب الله عز وجل علي فأوحى الله عز وجل إلى نبي من الأنبياء قل لفلان وعزتي وجلالي لو دعوتني حتى تنقطع أوصالك ما استجبت لك حتى ترد من مات إلى ما**

(١) الكافي ٢/٣٣١



دعوته إليه فيرجع عنه)[١]. وهذا الشرط يخص علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وهناك شرط يخص علاقة الإنسان بربه.

٤. أن يعمد التائب إلى كل فريضة عليه ضيعها فيؤدي حقها، فالتوبة من ترك الفرائض هي إتيانها بعد وقتها، وإلا لا تكون هناك توبة أصلا.

٥. أن يعمد التائب إلى جسمه الذي نبت على أكل الحرام فيذيبه بالأحزان.

٦. أن يذيق التائب جسمه ألم الطاعة كما أذاقها حلاوة المعصية.

وهذه الشروط الستة قد وردت على لسان أمير المؤمنين عليه السلام. فقد قال لقائل بحضرته (استغفر الله): (ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معانٍ أولها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العود إليه أبدا، والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة، والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالإحزان حتى تلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول استغفر الله)[٢].

---

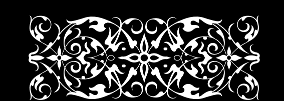
(١) بحار الأنوار 69 / 216
(٢) تحف العقول ١٣٨

ومن هذا كله يتبين أن التوبة ليست كلمة تقال حتى يغرق الإنسان في المعاصي ويقول تلك الكلمة ويخلص من تبعات ذلك كله .

ختاما

مر بنا في الأبحاث السابقة أهمية الرجوع إلى الله سبحانه والطريق إلى ذلك فلم يبق عذر لمعتذر، بل يعده القرآن ظلما وأي ظلم أكبر من إنسان يرتكب أعمالا لا يرى بها بأساً وقد عدها الله سبحانه وتعالى ذنوبا ونهى عنها ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١). وطريق الفوز يبدأ بالتوبة ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾(٢) فالباب مفتوح وأمام الجميع للوصول إلى النجاة والفوز، وهو ينحصر في ثلاثة أشياء؛ أولها الرجوع إلى الله سبحانه ثم الإيمان والعمل الصالح. والملفت للنظر أن التوبة لا تحتاج إلى ذنب مسبق أو كفر حتى يرجع العبد إلى الله فكل أنبياء الله عليهم السلام على الرغم من عصمتهم من الذنب المتعارف بين الناس لكن نجدهم جميعا كثيري التوبة والرجوع إلى الله. فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام بعد أن يقدم عملا ضخما وهو رفع قواعد البيت بمساعدة ابنه إسماعيل عليه السلام يدعوان الله سبحانه بهذا الدعاء ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن

(١) الحجرات الآية ١١
(٢) القصص ٦٧



ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[1]. وهذا سيد الأنبياء ﷺ يقول (إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة وأتوب إليه)[2]، فما أحرى بالمسلم الذي يريد أن يطبق سنة النبي ﷺ أن يتخذ ذلك وردا وذكرا دائما يلازمه ما دام حيا وعليه بقراءة أدعية الأئمة عليهم السلام بطلب التوبة. وكمثال على ذلك ما ورد في الصحيفة السجادية فإن الإمام عليه السلام يبدأ دعاءه بإخباره مولاه أن هناك ثلاث صفات في العبد تمنعه من طلب حاجته من ربه ويدفعه ويحرضه على السؤال صفة واحدة. فأما الصفات المانعة فعدم إسراع العبد بالطاعة المأمور بها، ولذلك فهو خجل من السؤال وإسراعه إلى العصيان، والثالثة كثرة النعم على العبد من ربه وقلة الشكر منه، بل عدم الشكر. وهذه ثالث الصفات المانعة. أما الصفة المحرضة على السؤال، وهي وحيدة، فهو إحسان المولى بلا عوض على من أقبل عليه فكل إحسان المولى تفضل منه بلا ثمن يربحه من العبد. فعلى العبد أن يقف بين يدي ربه وقوف المستسلم الذليل السائل على الحياء سؤال البائس المعيل إلى أن يقول عليه السلام: (ما أنا بأعصى من عصاك فغفرت له وما أنا بأظلم من تاب إليك فعدت عليه. أتوب إليك في مقامي هذا توبة نادم على ما فرط منه، مشفق مما اجتمع عليه، خالص الحياء مما وقع منه، عالم بأن العفو عن الذنب العظيم لا يتعاضمك وان

---

(١) البقرة الآية ١٢٧ – ١٢٩

(٢) مسند احمد ٢٨٣/٢

التجاوز عن الإثم الجليل لا يستصعبك وأن احتمال الجنايات الفاحشة لا يتكأدك، وأن أحب عبادك إليك من ترك الاستكبار عليك وجانب الإصرار ولزم الاستغفار)[١]. وفي مناجاة التائبين للإمام السجاد عليه السلام اعتراف بأن الخطايا تُلبس العبد ثوب المذلة، والتباعد عن المولى يجلل العبد لباس المسكنة، والجناية العظيمة موت القلب، وحياة ذلك القلب بالتوبة منه سبحانه، فهو الأمل والبغية والسؤال والمنية (فو عزتك ما أجد لذنوبي سواك غافرا ولا أرى لكسري غيرك جابرا، وقد خضعت بالإنابة إليك وعنوت بالاستكانة إليك فإن طردتني من بابك فبمن ألوذ، وإن رددتني من جنابك فبمن أعوذ ....)[٢].

وفي دعاء ثالث له عليه السلام: (اللهم إن يكن الندم توبة إليك فأنا أندم النادمين، وإن يكن الترك لمعصيتك إنابة فأنا أول المنيبين، وإن يكن الاستغفار حطّة للذنوب فإني لك من المستغفرين. اللهم فكما أمرت بالتوبة وضمنت القبول وحثثت على الدعاء ووعدت الإجابة، فصلّ على محمد وآل محمد، واقبل توبتي ولا ترجعني مرجع الخيبة من رحمتك، إنك أنت التواب على المذنبين والرحيم للخاطئين المنيبين)[٣].

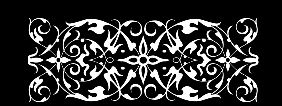
ويستطيع الباحث المدقق بعد أن يجمع هذه الأدعية الثلاثة وغيرها مما ورد في طلب التوبة ان يجد كل أركان التوبة وشرائط صحتها وكمالها، ومما

---

(١) الصحيفة السجادية

(٢) ن – م 292

(٣) الصحيفة السجادية ١٤٢



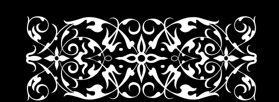
يمكـــن أن يكون عائقا من قبولها. وبذلك تعرف أن الصحيفة الســـجادية وكل أدعيـــة أهل البيت عليهم السلام ليســـت مجرد دعاء بيـــن العبد وربه بل هي مدرسة متكاملة يستطيع الإنسان المسلم أن يأخذ الدروس الكبيرة منها. ويبقى السؤال من أي ذنب يستغفر وهو المعصوم؟ وقبله الأنبياء قد تابوا فما معنى ذلك؟

والجواب على ذلك إن (القرب والبعد لما كانا نسبيين، أمكن أن يتحقق البعد في مقام القرب بنســـبة بعض مواقفـــه ومراحله إلى بعض. ويصدق حينئـــذٍ معنى التوبة على رجوع بعض المقربين من عباد الله الصالحين من موقفه الذي هو فيه إلى موقف أرفع منه وأقرب إلى ربه كما يشـــهد به ما يحكيـــه تعالى من توبة الأنبياء وهـــم معصومون بنص كلامه)[1]. وقد نقل ألمجلسي قدس سره عن الإمام الصادق عليه السلام: (التوبة حبل الله ومدد عنايته ولا بـــد للعبد من مداومة التوبة على كل حال، وكل فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السرّ وتوبة الأصفياء من النفس، وتوبة الأولياء مـــن تكوين الخطرات، وتوبة الخاص من الاشـــتغال بغير الله، وتوبة العام من الذنوب)[2].

نســـأل الله سبحانه أن يوفقنا إلى التوبة جميعا بمحمد وآله، وصلى الله على محمد وآله.

(١) الميزان ٤/٦٣
(٢) بحار الأنوار

الفهرس




الإنسان في حركة وانتقال ونقطة العود هو الله سبحانه وشتّان بين من يعود وهو مرضيٌّ عنه وبين من يعود وهو مغضوبٌ عليه.

والبشرية متّجهةٌ وبمسار ثانٍ إلى لقاء إمامها الثاني عشر.

وكلا المسارين يحتاجان إلى الرجوع إلى الله..

بل يبدآن به





الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

راسلونا fikriya@aljawadain.org

زورونا www.aljawadain.org